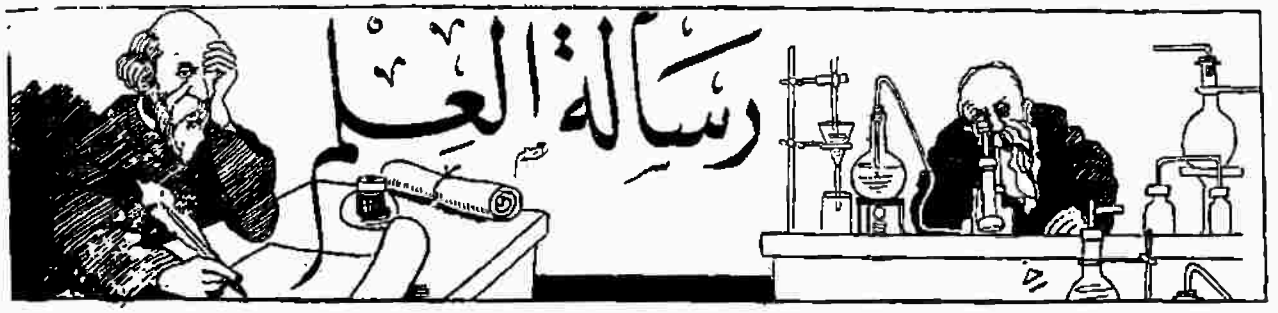

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

مدير مصلحة الكيمياء

وزادت أوامر إرليش وكبر مقدارها، وتزايدت السجائر الحامية التى عكف على تدخينها يوماً فيوماً. وما لبث أن دخلت طوائف كبيرة من الأرانب الذكور بيت جورج اسباير [1] كأنها ألوية الجيش تتابعا وكثرة، ودخل فى زمرتها إلى هذا البيت رجل صغير قصير يابانى صياد مكروب لا يألو فى بحثه جهداً. وكان اسمه هاتا. وكان قديراً وكان دقيقاً. وكان له جلد واسع وصبر على التجريب طويل، فهو يحتمل التجربة الواحدة يعيدها عشر مرات ولا يكل. وكان خفيف الحركة جم النشاط متزنه، فهو يقوم بعشر تجارب فى آن واحد. فوافق هوى إرليش، وهو كما تعلم دقيق يحب كل دقيق

فبدأ هاتا يجرب مركب رقم ٦٠٦، لا على مكروب الزهرى نفسه. بل على مكروب من نوعه ولكن أقل منه امتناعاً فى اللون وشرة فى الأثر، ذلك اسبيروشيتة الدجاج وكانت تقتل الدجاج قتلا. فماذا كانت نتيجة هذه التجارب العديدة الطويلة؟ صاح إرليش: «باهرة! ... خارقة! ... لاتكاد تصدق!». فهذه الدجاجات الكبيرة والأفراخ الصغيرة امتلأت دماؤها بهذا المكروب امتلاء، فما هى إلا ان حقنت برقم ٦٠٦ وأصبح عليها الصباح حتى كانت تسير مرفوعة الرأس تقوق وتتخطر ناعمة بالصحة والحياة. فهذه نتيجة لاشك مجيدة. ولكن ما الذى كان من أمر نسيبه المكروب الآخر مكروب الداء الانسانى الذميم؟

* * *

فى اليوم الحادى والثلاثين من أغسطس عام ١٩٠٩ وقف إرليش وهاتا أمام قفص به أرنب ذكر جميل سليم من أية وجهة نظرته، إلا صفنه [1]، فقد كان شوهه قرحتان فظيعتان كلتاهما أكبر من ربع الريال سببهما دبيب هذا المكروب اللعين الذى يأتى الانسان جزاء الخطيئة الكبرى [2].

وكان هاتا وضع هذا المكروب تحت جلد هذا الأرنب من شهر مضى. ووضع هاتا قطرة صغيرة من ماء هاتين القرحتين الكريهتين تحت مكرسكوب صنع خصيصاً لرؤية أمثال هذه المكروبات الخبيثة الرفيعة الشاحبة. وضعها ونظر فرأى فى ظلام المجال لهذا المكرسكوب الخاص، رأى تلك المكروبات ألوفا تتلألأ فى شعاع نور قوى سلط من الجانب عمدا عليها. وتراءت له كأنها ألوف من خرامات الحدادين ومثاقيب النجارين تطير فى المجال رائحة غادية. منظر جميل يستوقفك الساعات، ولكنه مروع، فأى المكروبات يجر على البشر من البلاء والويلات ما تجر هذه؟!

ومال هاتا عن المكرسكوب يمنة لينال إرليش من هذا المنظر نظرة. فلما رآه نظر إلى هاتا، ثم نظر إلى الأرنب ثم قال: «دونك فاحقنه». وجرت الحقنة فى وريد أذن الأرنب، ودخل المركب ٦٠٦ فى محلوله الأصفر إلى دم

(١) مساعد ارليش وقد تقدم

(١) كيس الخصية

(٢) الزنا

الأرنب يلقى مكروب الزهرى ويقاتله لأول مرة فى تاريخ هذه الدنيا .

وفى الغد لم يبق فى صفن الأرنب من لوالب هذا المكروب لولبة واحدة . والفرختان ؟ سبق اليهما الجفاف وأخذت جلبة [1] تتكون عليهما . ولم يكد يمضى على هذا شهران حتى لم يبق من الجُلبة غير جليبة صغيرة . شفاء هو السحر أو كشفاء المسيح بن مريم . واستطاع إرليش أن يكتب بعد ذلك بقليل :

« ويتضح من هذه التجارب أن هذا المكروب يفنى عن آخره توا إذا حقن الحيوان حقنة كبيرة كافية »

وإذن جاء يومه الكبير المنظور ! فهذه رصاصته المسحورة ، فما أسرع قتلها للمكروب ! وهى مع هذا سليمة مأمونة على الحيوان . وإن شككت فى سلامتها فانظر إلى هذا العدد العديد من الأرانب البارئة ، فهل نالها مثقال ذرة من سوء لما ضرب هاتا محقنه فى آذانها بجرعة هذا الداء ، برغم أنها جرعة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف الجرعة اللازمة الكافية لمحو الداء محواً محققاً سريعاً ؟ لقد نال إرليش بهذا الكشف فوق بغيته ، وأطلق من هذا المحقن على الداء رصاصة أروع من رصاصته . وضحك بُحاث ألمانيا بالأمس من أحلامه ، فجاء دوره اليوم فى الضحك فضحك وسُمع فيه . صاح إرليش : « إنها رصاصة مأمونة . إنها سم للداء ، وللحى فيها البرء والشفاء » وتستطيعُ أن تتصور أى الأطياف كانت تُطوف بخيال هذا الرجل المستوثق بنفسه استيثاقاً لا يقصر منه حد . وصاح فى وجه كل أحد : « إنها مأمونة ! إنها سليمة ! » ولكن فى ليلته ولياليه جلس فى مكتبه وقد تعبأ جوه بدخان السجائر حتى ضاقت به الأنفاس ؛ جلس بين أكوام الكتب وركام المجلات وقد ارتمت ظلالها حوله متراكبة غريبة ؛ جلس وحده وبين يديه تلك الكراسات الزرقاء الخضراء البرتقالية الصفراء التى كان ينقش عليها كل ليلة فى انبهام كل ما يخطر بباله مما سيصدره إلى رجاله وعبّاده من الأوامر فى الصباح

(١) القشرة التى تعلو الجرح عند البرء

الطالع . فى هذه الحجرة خلا إرليش لنفسه فسألها فى خفوت : « أحقاً أنها سليمة مأمونة ؟ »

إن الزرنيخ سم محبب إلى السمامين ... ؟ ! قال إرليش محتجاً ، : « ولكنا تناولنا طبيعته بالعجب العُجاب فغيرناها »

وهذا الذى شفا الفرّان والأرانب قد يقتل الرجال .. ؟ ! قال إرليش مجيباً : « إن النقلة من الأرانب والفرّان نُقلة خطيرة ، ولكنها خطوة لا بد منها »

وطوى الليل رداءه الأسود ، وانبلج الصباح وبعث شعاعه الأبيض إلى المعمل ينشر فيه مع النور الأمل والثقة والأقدام . ودخله إرليش فنظر فوجد الأرانب التى برئت ، ولقى عونه برتهايم ، هذا الرجل الساحر الذى لوى الزرنيخ الفانك سم لواه ستاً وستمائة مرة حتى عاد حربه سلاما . وتشمم إرليش فسطعت فى أنفه رائحات مائة مخلطات طيبات لمائة من حيوانات تجريبية ، ورائحات ألف مخلطات طيبات لألف من مواد كيماوية ، وتلفت إرليش يمنة ويسرة فوجد كل هذا الجمع من أعوانه رجالاً ونساء يؤمن به ويثق فيه . إذن فما التشكك وما التردد ؟ وهيا أيها الأعوان إلى هذه الخطوة الأخيرة نخطوها ولو خطيرة فقد والله خاب من أحجم

كان إرليش فى قراءة نفسه مقامرا ، ومَن من كبار سادة المكروب لم يكن مقامرا ؟ !

وقبل أن يزول تقرح صَفَن الأرنب بتمامه ، وقبل أن تسقط عنه أخيرة جلبانه [1] ، كتب ارليش إلى صديقه الدكتور كنراد ألت Konrad alt يقول : « فهل لك أن تتكرم فتجرب هذا المركب الجديد رقم ٦٠٦ فى مرضى الزهرى من بنى الانسان ؟ »

فأجابه الدكتور ألت : « بالطبع نعم » . وأى ألمانى لا يجيب بهذا وهم قوم غلب صعاب ؟

وجاءت سنة ١٩١٠ فكانت سنة إرليش الكبرى . ففى يوم من أيام هذه السنة انعقد المؤتمر العلمى فى مدينة كونجزبرج Konigsberg

(١) الجلبة القشرة التى تعلو الجرح عند البرء . وقد مرت

فلما دخله إرليش دوى المكان بالتصفيق الشديد وزاد وحمي حتى خيل أن الناس أصابتهم الحمى ، وطال حتى خيل أن إرليش لن يقوم فيُلقى فى الفوم مقالته . وقام أخيراً فحكى لهم كيف تمهدت السبيل بعد لأى إلى وجدان الرصاصة المسحورة ، ووصف لهم داء الزهرى اللعين ، وقص لهم قصة الرجال الذين انتهى بهم المآل إلى تشوه قطيع ثم موت قبيح ، أو انتهى بهم الحال إلى ماهو شر من هذا - إلى مستشفى المجاذيب . لم ينفعهم الزئبق ، الزئبق الذى أطعموه والزئبق الذى دُلكوا به والزئبق الذى حُقنوه حتى كادت أسنانهم أن تسقط من لثاتهم . حكى لهم حكاية هؤلاء المناحيس وقد انقطع الرجاء منهم ، ثم ماهى إلا أن دخلت فيهم إبرة المحقن واندفع فيهم محلول رقم ٦٠٦ وانتشر فى دمهم حتى نهض المريض وانتصب الراقد . وزادوا فى الوزن ثلاثين رطلا وتطهروا من نجسهم فلن يتحاشاهم الأصدقاء ... ...

وقص عليهم قصة رجل جاءه الشفاء كالمعجزة جاء بها بعض الأنبياء : قصة رجل منكود قرض المكروب بلعومه قرضاً وأكل منه أكلا حتى لم يعد مدخلا صالحاً للطعام فأطعموه بأنبوبة أطعمة سائلة كى تجرى فيها . ومرت به أشهر على هذه الحال . ثم ما هى إلا حقنة واحدة من مركب رقم ٦٠٦ حقنها فى الساعة الثانية بعد الظهر حتى استطاع فى العشاء أن يأكل ويزدرد سندُتشاية [1] من « السجق » . ولم تكن الحال قاصرة على الرجال ، فمن النساء المساكين زوجات بريئات أصابهن الداء من أزواج ولغوا فى الخطيئة . فمن هؤلاء امرأة ألحت عليها الآلام ، وبلغت منها العظام ، ولازمتها سنين لم تنم لياليها بعض النوم إلا بالمرفين . فهذه عولجت بحقنة واحدة من هذا الدواء فنامت فى ليلة ذلك اليوم نوماً هانئاً عميقاً من غير مرفين . معجزة والله وأى معجزة ! أى عقار وأى عشب وأى وصفة وصفها العجائز والكنائس وأطباء الدهور منذ الأزل بلغت من الشفاء ما بلغه هذا الدواء !

وأى مصل وأى لقاح مما ابتدعه المحدثون من صادة المكروب يبلغ ما بلغه هذا المركب فى قتل الجراثيم ، أو يقارب فى الفتك بها بعض ما فعلته هذه الرصاصة المسحورة الساحرة من القضاء عليها قضاء كأنه تنزل من السماء ؟

وهتف الناس لإرليش هتافا لم يهتفوه لأحد . وهتفوا له هتافاً لم يستحقه استحقاقه أحد . دع عنك ما أثاره فى الناس من قبل من آمال كواذب ، وتناس ما تلا ذلك من متاعب ومصاعب ، واذكر الساعة أنه بكشفه هذا مشى بجماعة البحاث فى طريق جديد لفتح مجيد .

تقول علوم الجوامد : لكل فعل رد فعل يساويه ويذهب فى ضد اتجاهه . وما يصدق فى عالم الجوامد يصدق فى عالم الأحياء ، وهو يصدق فى حياة الرجال من أمثال إرليش . فما كاد يشيع فى الناس ما جرى ، حتى تجاوبت أرجاء المعمورة تصرخ فى طلب هذا الدواء : فى طلب المركب رقم ٦٠٦ . فهكذا أسماه إرليش اسماً ضخماً يملأ السمع ويبهر الحساب فلنغفر له طلب الضخامة وحب الفخامة . فقام برتهايم ومساعدوه العشرة فى بيت إسباير يصنعون مئات الألوف من جرعات هذه المادة البديعة ، ولم يقعدهم أنهم كانوا متعبين منهوكين من طول ما كدوا وجهدوا . وقاموا فى هذا البيت الصغير بصناعة مقادير لا ينهض بها إلا المصنع الكبير . وصنعوها فى جو مخطر ملىء بالأثير . وصنعوها فى خشية من زلة قليلة تحدث فى التركيب فتقضى على العدد الكثير الوفير من الرجال والنساء . فالسلفرسان [1] Salvarsan سيف له حدان : حد لقتل الجراثيم ، وحد لقتل الانسان . وإرليش ، فما الذى كان من أمره ؟ أصبح جلدة على عظمة ، وزاده داء السكر سوءاً ولم ينقطع عن شرب سجائره الكبيرة وليته لم يفعل . فهذا ما كان من أمره : بالأمس أحرق شمعته من طرفيها ، واليوم هو حارقها من وسطها أيضاً

(يتبع) أحمد زكى

(1) Sanduitch

(١) اسم هذا الدواء أى مركب ٦٠٦